الباب الثالث

المدارس التاريخية

في العالم الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

المدارس التاريخية في العالم الإسلامي

في بادىء الأمر اهتم علماء العرب والمسلمين اهتماماً بالغاً بعلم التاريخ، مما جعلهم يفكرون في إنشاء مدرسة تاريخية، لذا أسسوا المدرسة الأولى لعلم التاريخ في المدينة المنورة التي بقيت عبر التاريخ من المصادر الضرورية للدارسين والباحثين في مجال علم التاريخ الإسلامي، وصار طلاب العلم يفدون إليها من جميع أرجاء البلاد الإسلامية للدراسة والبحث. والجدير بالذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى انتشرت المدارس التاريخية في العالم الإسلامي.

كانت لمدارس بغداد التاريخية في العصر العباسي الأول صولة وجولة في العالم الإسلامي، بل هي المدارس التاريخية المعروفة آنذاك، ولكن بدأت معالم الشيخوخة عليها عند مطلع القرن الرابع الهجري، لذا ظهر الحماس للمدارس التاريخية الإقليمية في الأقطار الإسلامية الأخرى من العالم الإسلامي، لذلك انتشرت المدارس التاريخية في كل من مصر والمغرب والأندلس وإيران والشام واليمن، وهذه المدارس التاريخية صارت تمتلك رأياً تاريخياً مستقلاً عن مدارس بغداد التاريخية التي كانت تعتبر في السابق مصدراً للمعارف التاريخية لجميع البلدان الإسلامية. ومن هنا أنتجت هذه المدارس التاريخية مؤرخين كباراً لهم باع طويل في علم التاريخ ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن أيضاً في العالم أجمع. ولاشك أن هذه المجموعة من فطاحل علم التاريخ شُيِّدت على أكتافهم الحضارة الإسلامية، وهم الذين أرسوا قواعد البحث في ميدان علم التاريخ.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «ومن هذا وذلك توزعت الأقطار الإسلامية تدوين التاريخ مرة أخرى، ولكن على أساس جديد لعبت فيه القوى السياسية الدور الأول؛ بمعنى أن المدارس الجديدة إنما كانت تقوم وتتوطد حيث تظهر الدول المنقطعة. قامت في الأندلس والمغرب حيث ظهرت إمارة ثم خلافة الأمويين وظهرت إمارة الأدارسة والأغالبة.. وقامت

في مصر حيث ظهر الإخشيديون بعد الطولونيين ثم الفاطميون ثم الأيوبيون، وقامت في إيران الزرادشتية.. أما الشام واليمن فلأنهما على ما يبدو ظلا قُطرين تابعين تارة للخليفة العباسي وولاته، وتارة أخرى لخليفة مصر الفاطمي وولاته فإن مدرستهما التاريخية ظلت أضعف في القوى غير مشهورة المؤلفات ولا كثيرة المؤلفين نسبياً.. كان الاهتمام المحلي بالأمور التاريخية الإقليمية ينبع: (١) من حب الموطن والتعصب له والتفاخر برجاله. (٢) من الحاجة الحياتية لمعرفة التجارب السياسية المحلية والاستفادة منها. (٣) من الرغبة في تمجيد الحكام المحليين لأغراض سياسية أو نفعية. (٤) من قرب المعلومات وأصحابها إلى المؤلفين والاهتمام بالقريب أكثر من البعيد. (٥) ومن أسباب سياسية واقتصادية شتى تتعلق بتحول الأحداث الهامة مع الأيام من منطقة إلى أخرى».

لقد تبلورت بين المؤرخين المسلمين آنذاك ظاهرة أن كل مؤرخ أدرى بأحوال بلده وأقرب لفهم حوادثه التاريخية من غيره، لذا كثرت المدارس التاريخية الإقليمية في أرجاء العالم الإسلامي. ومن هنا انتشرت فكرة معرفة الإنسان لأخبار منطقته أهم بكثير من معرفة أخبار بلاد أخرى. والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين يرون أن هذا الحدث نتيجة التفكك السياسي الذي صار بين القرن الرابع والقرن السابع الهجريين، حيث بقي كل بلد يحاول أن يبرر الانفصال عن الخلافة العباسية في بغداد بأنه يريد إثبات شخصيته داخلياً وخارجياً، وعليه تعددت المذاهب السياسية في العالم الإسلامي منذ ذلك الوقت.

يقول **الحافظ أبو بكر بن أحمد بن علي الخطيب البغدادي** في كتابه «تاريخ بغداد» ـ الجزء الأول ـ: «أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى بن عبد العزيز البزار بهمذان قال: سمعت أبا الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي الحافظ يقول: (ينبغي لطالب الحديث ومن عنى به، أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله، وتفهمه، وضبطه حتى يعلم صحيحه وسقيمه، ويعرف

أهل التحديث به وأحوالهم معرفة تامة إذا كان في بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً، ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه)».

وخلاصة القول: لقد بدأت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية على قدم وساق في العصر الأموي والعباسي، مما ساعد على قناعة كل من ولاة الأمر وقادة الفكر آنذاك على تأسيس مدارس تاريخية لإنقاذ الإنتاج العلمي للحضارات القديمة لكي تستفيد الأجيال التالية منها. وعليه أنشئت مدارس تاريخية في بغداد تبنت مسارين عامين، الأول: يختص بأهل الحديث، أما الثاني: فركّز على كل من الأنساب والروايات الشفهية والمدونة للأحداث التاريخية.

والمعروف أن جميع المدارس التاريخية التي قامت في العصر العباسي الأول كانت تستلهم معارفها من المدارس التاريخية التي كانت منتشرة في بغداد، ولكن الأمر لم يستمر طويلاً، بل في مطلع القرن الرابع الهجري ظهرت بوادر رغبة بعض المدارس التاريخية في العالم الإسلامي في الانفصال عن المدارس التاريخية في بغداد، لذا أقيمت مدارس تاريخية إقليمية هامة في معظم الأمصار الإسلامية؛ وهذا ناتج من تحمس المؤرخين المسلمين الأوائل لمثل هذا الاتجاه معتقدين أنه سينعش الحركة العلمية في الأمة الإسلامية.

وليس هناك في الحقيقة فروق كبيرة بين المدارس التاريخية في الأقطار الإسلامية، لأن الأسس الفكرية والعقائدية والاتجاهات العلمية تكاد تكون متشابهة، إلا أن الصفة الإقليمية الصغيرة جداً كانت تظهر في بعض الأحيان، حيث إن المدرسة التاريخية الإقليمية أعرف وأقرب بمفكريها وبالأحداث التاريخية المحلية، وعليه أنشئت المدارس التاريخية في جميع الأمصار الإسلامية.

مدرسة المدينة المنورة التاريخية:

نشأ التاريخ الإسلامي مستقلاً عن كل من التاريخ اليوناني والتاريخ الروماني والتاريخ الفارسي، بل استمد قواعده من القرآن الكريم الذي حث المسلمين على الاهتمام بتاريخهم لكي يتجنبوا الأخطاء التي وقعت فيها الأمم

السابقة لهم. والقرآن الكريم يحتوي على معارف رائعة حول مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

بدأت مدرسة المدينة المنورة التاريخية على شكل حلقات دراسية تعقد أغلبها في المساجد وهي مفتوحة لجميع طلاب العلم. وقد ركز الأساتذة في بادىء الأمر على تدريس كل من القرآن الكريم ويليه أخبار الرسول ﷺ. وهذا عائد لبداية التأليف في ميدان التاريخ الإسلامي الذي كان يعتمد تماماً على كل من القصص القرآنية وسيرة الرسول ﷺ وأخبار غزواته ومن ساهم فيها. والجدير بالذكر أنه عندما يجتاز طالب العلم الحلقة الأولى ينتقل إلى الحلقة الثانية، وهكذا حتى تتولد لدى أستاذه قناعة استحقاقه الإجازة العلمية فإذا منح الإجازة العلمية يمكنه أن يزاول التدريس وغيره.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «عند العرب بدأت الدراسات التاريخية وغير التاريخية في حلقات للدراسة، تحيط كل حلقة بأستاذ، وقد كانت حلقات الدراسة مفتوحة، وقد يبرز طالب العلم في حلقة من الحلقات حيث يجتازها إلى حلقة أخرى، وكانت الروايات تسير في سلسلة، ولما كانت المدينة عاصمة الرسول والخلفاء الأول، ومركز تجمع الصحابة، ولما كانت البلد الذي نزل فيه الدين الجديد، تولدت حاجة ملحة عند المسلمين الجدد الذين انتشروا في بقاع بعيدة واسعة إلى معرفة أكثر عمقاً بالدين الجديد وبصاحب الرسالة، كما تولدت لديهم حاجة أخرى لمعرفة الأحكام الإسلامية والحديث والسُنن والتفسير وتفاصيل الهجرة والمغازي. ولما كانت المدينة الموطن والمقر لعلماء المسلمين وهم يومئذ القراء والحفاظ من الصحابة، كان من الطبيعي أن يتوجه طلبة العلم إلى مدينة الرسول، حيث تصدى لإيضاح ذلك أبناء الصحابة أنفسهم، فكان أن تعددت حلقات الدراسة، مشكلة النواة لنشوء مدرسة التاريخ في المدينة. وقد تميزت هذه المدرسة التاريخية بالمعرفة التاريخية الإسلامية وتحديداً في الحديث و (المغازي) وفي الفقه».

كانت أخبار الجاهلية منتشرة بين سكان المدينة المنورة، وبقوا يتناقلونها بينهم ويحبون السماع إلى الخرافات والأساطير الجاهلية البالية، إلى أن دخلوا في الإسلام وقويت عقيدتهم، فتركوا أخبار الجاهلية العقيمة جانباً واتجهوا إلى كل من قراءة القرآن ودراسة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته والبحث العلمي، لذا أشرقت الحركة العلمية في المدينة المنورة، ومن هنا بدأت فكرة مدرسة المدينة المنورة التاريخية النظامية تتبلور، وفيها ركّز المؤرخون المسلمون على دراسة كل من تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية وأخبار غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم التي رواها الصحابة والتابعون ومن بعدهم بالأسانيد القوية الموثقة، وهكذا صارت مدرسة المدينة المنورة التاريخية متخصصة بهذه الميادين، لذا اعتبرها المؤرخون المسلمون مصدراً هاماً جداً للباحثين في مجال التاريخ الإسلامي، ونتيجة لذلك أصبح طلاب العلم يأتون من الأمصار الإسلامية إلى المدينة المنورة لهدفين: زيارة مسجد رسول الله ﷺ وطلب العلم.

يقول **أحمد أمين** في كتابه آنف الذكر: «أول ما عنيت به مدرسة المدينة التاريخية سيرة النبي ﷺ وما يتبعها من مغاز، وإن هذا النوع من التاريخ اعتمد على شيئين: الأول: ما كان دائراً بين العرب عن أخبار الجاهلية كأخبار جرهم ودفن زمزم، وأخبار قصي بن كلاب وغلبته على أمر مكة وجمعه أمر قريش، ومعونة قضاعة له، وقصة سد مأرب ونحو ذلك، والثاني: أحاديث رواها الصحابة والتابعون ومن بعدهم عن حياة النبي ﷺ من ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين وغزواته، وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته، وقد أضافوا إلى أخبار الجاهلية والإسلام الأشعار التي رويت في هذه الموضوعات، مما يصح بعضه و لم يصح بعضه عند الثقات».

وخلاصة القول: لقد ركز المؤرخون المسلمون في مدرسة المدينة المنورة التاريخية على دراسة القرآن الكريم وحياة الرسول ﷺ وغزواته وحروبه

بشكل تفصيلي والذي خدم كلاً من العقيدة الإسلامية وعلم التاريخ الإسلامي، لذا أدخل المؤرخون المسلمون على دراسة علم التاريخ الإسلامي سلسلة الرواة (الإسناد) الذي ولد قاعدة التبحث والتحري. إذن نستنتج من هذا أن بداية التأليف العلمي في التاريخ الإسلامي كان شديد الصلة بكل من القرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأعمال الصحابة وأخبار الغزوات والجهاد.

المعروف أن المؤرخين المسلمين كانوا يعتمدون على الروايات الشفهية الموثوقة مثل المحدثين الذين يروون أحاديث صفوة الخلق رسول الله ﷺ ، وعليه يمكن استخلاص أن المحدثين يهتمون بالروايات التي تعطي قواعد فقهية أو خلقية، أما المؤرخون فيعنون بالروايات التي تمدهم بسرد الأحداث. إذن نستطيع القول: إن علم التاريخ الإسلامي سار على الطريقة التي سلكها الحديث.

مدرسة الشام التاريخية:

عندما كثرت الفتوحات الإسلامية برز شعور قوي نحو دراسة علم التاريخ والتعمق فيه، وذلك ليستفيدوا من الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية للشعوب القديمة الذين عاشوا على كوكب الأرض، نتيجة لذلك بدأت مجموعة كبيرة من الصحابة رضوان الله عليهم ومن المثقفين العارفين بأخبار العالم العربي في الجاهلية، يتحدثون عن الحركة التاريخية لدى الأوائل وينوهون عن محاسن وفضل الإسلام على حكام البلاد التي فتحها المسلمون والتي اعتنق مواطنوها الإسلام، حيث صار للمسلمين الحكم والسيادة على جميع الأمصار التي افتتحوها. من هنا أشرقت فكرة مدرسة الشام التاريخية؛ لكي يتذكروا فيها أخبار الأمم ويقارنوا بينها وبين وضع الأمة الإسلامية العادل. ولاشك أن الدولة الإسلامية حينئذ في أمس الحاجة إلى المعرفة التاريخية، لذا اهتمت مدرسة الشام التاريخية في هذا الجانب، وتفوقت فيه.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «بدأت مدرسة الشام التاريخية تستقطب عدداً من العلماء الأخباريين وتخرج عدداً آخر منذ أيام معاوية. وكانت جاذبية العاصمة السياسية من جهة، ورغبة البيت الأموي في الثقافة التاريخية اعتباراً من معاوية حتى آخر الأمويين هما اللتان تفتحان الطريق لهذه المدرسة التي عنيت بالأنساب وبالتاريخ الجاهلي عنايتها بعهد الرسالة والفتوح على السواء، فكانت وسطاً في هذه المواد بين المدرستين: المدنيّة والعراقية، ولئن كانت في رجالها أكثر ميلاً إلى المغازي والغبر والفتوح منها إلى الأنساب والأيام، فإنها تميزت عن المدرستين فيما يظهر بعنايتها بأمر الفتوح خاصة والمغازي والمقاسم وتخصصها بها.. وكان معروفاً لدى الناس في ذلك العصر اختصاص المدارس التاريخية الإقليمية كل منها بميدانها، فلمدرسة المدينة المغازي ولمدرسة الشام معها الفتوح أيضاً وللعراق الأيام والأنساب».

كانت مدينة دمشق حاضرة الدولة الإسلامية في العصر الأموي، لذا صارت المركز الثقافي البارز في الدولة الإسلامية. والمعروف أن حكامها وأعيانها كانوا يحبون التسامر والحديث عن الأمم القديمة وأيامهم وأخبارهم، وعليه تأسست مدرسة الشام التاريخية في دمشق التي فيها أصبح المؤرخون المسلمون يدرّسون طلاب العلم حياة الرسول ﷺ وغزواته والفتوحات الإسلامية. كما اهتموا اهتماماً بالغاً بالثقافة التاريخية، بهذا حاولوا بجدارة ربط الماضي بالحاضر لكي يصلوا إلى المستقبل الباسم، ومن هنا أشرقت في مدينة دمشق الحركة التاريخية وتخرج في مدرسة الشام التاريخية علماء كبار ليس فقط في علم التاريخ ولكن أيضاً في كل من الحديث والفقه وتفسير القرآن الكريم. وبهذا أصبحت تنافس مدرسة المدينة المنورة التاريخية. ولم يستمر ازدهار مدرسة الشام التاريخية، بل تعثرت كثيراً، وذلك عندما صارت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، حيث اتجه جهابذة الفكر إلى مركز الحركة العلمية في مدرسة العراق التاريخية؛ لكي يتمكنوا من تحقيق طموحاتهم العلمية.

ويقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «الأصول الأولى لمدرسة الشام التاريخية أموية. وقد وصل نموها ورجالها القمة. وإذا كان العهد العباسي وانتقال مركز ثقل الدولة الإسلامية من الشام إلى العراق قد سلب هذه المدرسة الكثير من الديناميكية التي تتمتع بها العواصم ومن الإمكان المادي ومن الرفد الخارجي الذي يزيد في غناها الفكري، وردها للعيش على هامش الحياة السياسية والحضارية المؤارة في بغداد، إلا أن هذا كله لم يلغ هذه المدرسة. فصارى ما نجم عنه أنه منعها فترة طويلة من أن تطلع بسبب نقص (التغذية) المادية والحضارية والفكرية سوى النبت الصغير المحدود ليس فيه الدوح الباسق ولا الإنتاج الوارف الظل البعيد الجذور إلا في نهاية الفترة».

وخلاصة القول: حين نزل عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم في بلاد الشام، وبدؤوا يحدثون الناس عن كل من حياة صفوة الخلق ﷺ وغزواته، ويعلمونهم أمور دينهم ازدهرت الحركة العلمية في بلاد الشام، وقامت مدرسة الشام التاريخية في دمشق تستقبل طلاب العلم من جميع أرجاء العالم الإسلامي، وفيها اعتبر المؤرخون المسلمون كلاً من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم المصادر الرئيسة بل الضرورية للدارسين والباحثين في علم التاريخ. كما اشتهرت مدرسة الشام التاريخية في تفوقها في موضوع الفتوحات الإسلامية وتركيزها على معرفة ماضي البشرية بإيجابياتها وسلبياتها، والعناية بالإيجابيات وتسليط الضوء على هذا الجانب في جميع الدراسات التي تم فيها. وللأسف الشديد أن هذه المدرسة العظيمة تأثرت في العصر العباسي، حيث تحولت الحركة الفكرية من الشام إلى العراق، وأصبحت بغداد مركز الزعامة الإسلامية، لذا انتقل كبار المفكرين والعلماء من الشام إلى بغداد، وبالرغم من هذا كله حافظت مدرسة الشام التاريخية إلى حد ما على كوادرها العلمية وبقيت مدرسة لها كيانها.

مدرسة العراق التاريخية:

بدأت مدرسة العراق التاريخية إقليمية متوزعة بين الكوفة والبصرة، ولكن عندما أنشأ الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وصارت عاصمة العالم الإسلامي، أشرقت مدرسة العراق التاريخية في أحضانها وعملت مستقلة تماماً عن كل من مدرسة المدينة المنورة التاريخية ومدرسة الشام التاريخية، وركز مؤرخوها في بادىء الأمر على موضوع القبلية، حيث تحمس هؤلاء المؤرخون للحفاظ على التقاليد العربية الأصيلة الخاضعة للمبادىء الإسلامية السمحة، و لم يهملوا أبداً دراسة الحوادث التاريخية بوجه عام، ولكنهم بذلوا جهداً كبيراً في جمع القصص القبلية ووثقوها بالإسناد، حيث إن الشعوب غير العربية التي دخلت في الإسلام كانت تدعي صراحة أن العلماء وكبار المفكرين في العالم الإسلامي منهم. وهذا الشيء لم يوافق عليه المؤرخون المسلمون بل أنكروه جملة وتفصيلاً، مستخدمين حقيقة واضحة لا تقبل الجدل أو التأويل، وهي: أن الوحي نزل على سيد البشرية نبينا محمد ﷺ وهو أساس كل معرفة صحيحة وهو عربي أصيل.

يؤخذ على مؤرخي مدرسة العراق التاريخية تبنيهم الأفكار الإقليمية والقبلية التي أثرت على اتجاههم التاريخي. وصارت مدرسة العراق التاريخية تنعت باتجاهها القبلي وإن كان هذا الاتجاه قد ساعد على إبراز المنهجية النقدية في علم التاريخ الإسلامي، حيث اضطر بعض المؤرخين المسلمين أن يعرضوا الروايات المعارضة أو المقابلة للروايات التي دوّنت حول موضوع كل من الإقليمية والقبلية، وعلى الرغم من الصراعات التي دارت في مدرسة العراق التاريخية، إلا أنها تميزت في دراستها العلمية حول كل من حروب الردة والفتوحات الإسلامية العظيمة والشورى في الإسلام والفتن وأسباب وقوعها وغيرها.

يقول **عبد العزيز الدوري** في كتابه آنف الذكر: «إن علم التاريخ عند العرب جزء من الثقافة العربية، ولا يمكن فهمه إلا بالإشارة إلى الفعاليات والتطورات الثقافية الأخرى .. سارت الدراسات التاريخية في بداياتها في اتجاهين عامين متميزين الواحد عن الآخر: اتجاه أهل الحديث، والاتجاه القبلي الذي كان إلى حد ما استمراراً للفعاليات القبلية السابقة. وهذان الاتجاهان يعكسان تيارين أساسيين في مجتمع صدر الإسلام ـ الاتجاه الإسلامي والاتجاه القبلي ـ أثراً في مختلف جوانب الحياة، وتمثل النشاط في كل من الاتجاهين في مصر من الأمصار. فكانت المدينة مهد الإسلام المركز الأول لاتجاه أهل الحديث، بينما كانت البصرة والكوفة مقري الخاميات القبلية وموطني التقاليد القبلية؛ المركز الأول للاتجاه القبلي. وكانت المدينة والكوفة والبصرة مراكز الحياة الثقافية في صدر الإسلام».

تطورت الكتابة التاريخية تطوراً ملحوظاً في مدرسة العراق التاريخية؛ لأن اللغة العربية كانت لغة الدولة والدين، لذا اتجه المؤرخون المسلمون إلى ضبط أنساب العرب وأيامهم، بالإضافة إلى العناية التامة بكل من القرآن الكريم والحديث والفقه ومعرفة أسباب ونتائج غزوات رسول الله ﷺ .. نتيجة لذلك كانت الثقافة التاريخية في مدرسة العراق التاريخية عالية جداً، ولها تأثيرات عظيمة على المجتمعات الإسلامية في جميع أرجاء الدولة الإسلامية.. ومن هنا نمت الحركة العلمية في العالم الإسلامي، بدأت مسيرتها في مدرسة المدينة المنورة التاريخية مارة في مدرسة الشام التاريخية، ولكنها تبلورت وعظمت في مدرسة العراق التاريخية.

يقول **محمد أحمد ترحيني** في كتابه آنف الذكر: «وقد تطورت الكتابة التاريخية مع مطلع القرن الثاني للهجرة بوجود شيوخ متضلعين بأنساب قبائلهم ومآثرها، وبوجود كتب تحوي أنساباً وشعراً وربما أخباراً لبعض

القبائل، ومن المحتمل أن تكون هذه الكتب قد جمعت من قبل بعض الرواة، لكنها كانت تعتبر ملكاً مشتركاً للقبيلة، فالشاعر يشير إلى كتاب تميم، وحماد الراوية كانت لديه كتب قريش وثقيف (الأصفهاني ـ الأغاني)، وقد وفر هؤلاء الرواة برواياتهم المدونة مادة تاريخية استعان بها المؤرخون فيما بعد ... وحوالي منتصف القرن الثاني للهجرة نجد رواة وأخباريين ونسابين ولغويين علماء، خلفوا مؤلفات تاريخية تعتبر ثروة من الروايات التاريخية، وتعتبر تلك الفترة فترة علماء رواد في شتى حقول المعرفة بدءاً بالشعر مروراً بالأخبار والحديث وصولاً إلى ما وصلنا من المؤلفات الأولى في السيرة».

وخلاصة القول: لقد كان في مدينة العراق التاريخية في بادىء الأمر ثلاثة تيارات: ثقافية إسلامية وفارسية وهيلينية، ولكن اضمحل كل من التيار الفارسي والتيار الهيليني وبقي على الساحة التيار الإسلامي ينمو ويترعرع في مدرسة العراق التاريخية، ويتضح ذلك النمو من إنتاج علمائها في مجال كل من الأنساب والمغازي والسير لرجال الإسلام والفتوحات الإسلامية العظيمة، فقد وفر علماؤها مؤلفات كثيرة في هذه الحقول خدمت طلاب العلم والباحثين.

لقد اعتنى مؤرخو مدرسة العراق التاريخية بتدوين الأنساب العربية، ولكنهم أيضاً خرجوا أعداداً كثيرة من الرواة الذين جعلوا اهتمامهم منصباً على أخبار الأمة الإسلامية لا على أخبار القبائل العربية وحدها، لذا استطاعوا أن يجمعوا معلومات قيمة مصدرها كل من الشعر والحديث والأنساب. إذن يمكن القول: إن كلاً من مدرسة المدينة المنورة التاريخية ومدرسة الشام التاريخية برزتا في كل من المغازي والفتوحات الإسلامية، أما مدرسة العراق التاريخية فتخصصت في كل من الأخبار والأيام والأنساب، وتفنن مؤرخوها بجمع الروايات التاريخية ليس لقبيلة معينة، ولكن للقبائل العربية جميعها.

مدرسة مصر التاريخية:

عندما دخل صحابة رسول الله ﷺ ، مصر بدأوا يحدثون الناس عن الدين الإسلامي الحنيف وغزوات المصطفى ﷺ، والفتوحات الإسلامية العظيمة التي خدمت الدين الإسلامي، لذا تمكنوا من إشعال الحركتين الدينية والعلمية الواسعتي النطاق هناك، لذا رأوا أنه من الضروري تأسيس مدرسة مصر التاريخية؛ لكي يتولى أساتذتها تبليغ رسالة نبينا محمد ﷺ، ويدرسوا التاريخ الإسلامي الحافل بالأحداث التاريخية القيّمة لأبناء الأمة الإسلامية، فكان أول أستاذتها من الصحابة رضوان الله عليهم الذين جاؤوا لفتح مصر، ورغبوا بالبقاء في أرض الكنانة فاستوطنوها. كما استمرت مدرسة مصر التاريخية في التطور والرقي، حتى صارت مرجعاً من المراجع الهامة لمعرفة التشريع الإسلامي. ومن هنا برزت للملأ معالم تاريخ مصر الحقيقي الخالي من الأساطير والخرافات.

يقول **أحمد أمين** في كتابه آنف الذكر: «تكونت مدرسة مصر التاريخية وكان أول أساتذتها الصحابة، فأخذ عنهم التابعون وأخذ عن التابعين تابعوهم، وقد عد هؤلاء الصحابة مصريين لنزولهم في مصر واستيطانها، ولذلك يلقبهم المحدثون بالمصريين، وقد أخذت أحاديث هؤلاء المصريين من الصحابة والتابعين، ووردت في كتب الحديث الستة المشهورة، وهذه المدرسة بدأت ساذجة بسيطة، يسمع أحدهم الحديث فيحفظه أو يكتبه، ثم نمت بالتدريج فتخصص قوم للعلم يتدارسونه، يدرسون القرآن ويدرسون الحديث ويستنبطون منهما الأحكام، ونبغ من هذه المدرسة المصرية جماعة كبيرة من العلماء المجتهدين».

اشتهر مؤرخو مدرسة مصر التاريخية بقدرتهم النادرة على إقناع سكان مصر بتقبل أصول السيرة النبوية التي تُعتبر بحق قنديل الحضارة العربية والإسلامية، والسبب في هذا التقبل المفرح يعود إلى صدق وأمانة هؤلاء

المؤرخين، فهم في الحقيقة كانوا يحملون في صدورهم الأفكار التاريخية العظيمة التي تعبر عن معرفة إنسانية علمية خالية من الخزعبلات البالية، ولاشك أن التطورات الثقافية التي صارت في مدرسة مصر التاريخية، أدت إلى الكتابة التاريخية النزيهة العادلة، التي تتعلق بكل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية وغزوات رسول الله ﷺ والأخبار والشعر والحث القوي على تبني فكرة الأمة الإسلامية الموحدة، حيث إن العرب أصحاب رسالة عالمية مضمونها الإسلام السمح. والحقيقة أن هذا الاتجاه قضى على اقتصار الأخبار والقصص على القبائل العربية، بل تعداها ليشمل جميع أفراد المجتمع، وعليه أصبحت أرض الكنانة «مصر» رائدة كبيرة من رواد الحضارة العربية والإسلامية، وبقيت محافظة على هذه المكانة عبر العصور.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: عناصر المادة التاريخية التي كان يرويها الفاتحون المسلمون لمصر تتناول بخاصة السيرة النبوية والمغازي وما يتصل بعصر الرسالة والصحابة، وكذلك الفتوح وبخاصة ما يتصل منها بفتح مصر بالذات ثم فتح المغرب وأخيراً الأندلس، والتقى المنبعان منذ وقت مبكر جداً، لتكوين المادة الأولية، والنواة التاريخية لمدرسة مصر التاريخية، ولم يكن قد مضى على الفتح قرن واحد حتى تبين أن هذه المدرسة قد اختارت مادتها الخاصة اختياراً، أهملت جانباً مما أتيح لها من المادة التاريخية واهتمت بجانب، ويتمثل ما اهتمت به في كل من:

- بعض جوانب المغازي النبوية.
- فتوح مصر والمغرب ثم الأندلس.
- القصص الوعظي.

وما من شك في أن عوامل كثيرة قد عملت على هذا التخصص في مدرسة

مصر التاريخية، منها شخصية مصر التاريخية ـ الجغرافية المميزة ـ ومنها القلة النسبية في أعداد الصحابة والتابعين ورجال القبائل العربية التي نزلت بها، بالمقارنة مع الأعداد الضخمة التي نزلت منهم في العراق والشام خاصة، ومنها تباعد الثقافة العربية والإسلامية الناشئة عن التراث التاريخي الوثني وما يتصل به.

وخلاصة القول: لقد تأثرت الحركة الفكرية في مصر تأثراً عظيماً بعد الفتح الإسلامي، حيث اعتنقت الإسلام الأغلبية العظمى من الشعب المصري، ولاشك أن سكان مصر استفادوا من معطيات الدين الإسلامي الحنيف، لذا صارت لهم شخصية معتمدة في ميدان علم التاريخ، كما أنهم لم يهملوا أيضاً المعلومات التاريخية التي حصلوا عليها من تاريخ مصر القديم.

الحقيقة أن مصر لم تبدأ من فراغ ثقافي، بل كانت لديها معارف قيمة ورثتها عن كل من الفراعنة واليونان والرومان وغيرهم، ونتيجة لذلك تولدت لدى مؤرخي مدرسة مصر التاريخية القناعة أن المعلومات التاريخية ضرورية لتطوير المعرفة الإنسانية الخالية من أخبار السحر والطلاسم والأرواح الوهمية التي أنكرها الدين الإسلامي جملة وتفصيلاً.

وهكذا أصبحت مدرسة مصر التاريخية مصدراً هاماً جداً لطلاب علم التاريخ ليس فقط في العالم الإسلامي، ولكن أيضاً في جميع أرجاء المعمورة عبر التاريخ.

مدرسة اليمن التاريخية:

بدأت مدرسة اليمن التاريخية كامتداد للتيارات الجاهلية العارمة التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية، ولكن المؤرخين فيها ركزوا على كل من

قصص أهل الكتاب والأساطير والخرافات وتاريخ أهل اليمن بوجه خاص. والحقيقة أن المؤرخ اليمني آنذاك كان عبارة عن قصاص يقص الروايات التاريخية التي تشتمل على كثير من الخزعبلات، والتي تتناقلها الأجيال دون أي نقد. لذا استمرت هذه الروايات تحتوي على الخرافات والأساطير البالية مدة طويلة من الزمن بلا تنقيح وغربلة.

كانت الروايات اليمنية المتوارثة والمتداولة حينئذ تدرس في مدرسة اليمن التاريخية ومعظمها عبارة عن قصص تحتوي على مزيج من القصص الشعبية والإسرائيليات. والجدير بالذكر أن مؤرخي مدرسة اليمن التاريخية كانوا يتغنون بكل أمجاد وبطولات عرب اليمن وكانوا يدرّسون هذه الأفكار والمبادىء لطلابهم في مدرسة اليمن التاريخية، بهذا أرسوا في مناهجهم الدراسية موضوع الأسطورة والأخبار الموضوعة على تاريخ اليمن، لذا رأى بعض المؤرخين في العالم أن مؤرخي مدرسة اليمن التاريخية تنقصهم صفات المؤرخين المتفق عليها دولياً، وعليه يمكن اعتبارهم قصّاصين.

لقد اعتمد مؤرخو مدرسة اليمن التاريخية في مؤلفاتهم على كل من الروايات الشفوية.. التي كانوا يتلقونها من مشايخ القبائل، وأحاديث الأنبياء والعبيد وأحاديث بني إسرائيل وأخبار ملوك حمير، والواضح أن معظم أعمال مدرسة اليمن التاريخية كانت امتداداً لفترة ما قبل الإسلام، ولكن عندما دخل اليمن في الإسلام تغير الوضع تماماً لدى مؤرخي مدرسة اليمن التاريخية، حيث تقمصوا شخصية المؤرخ المسلم الذي كان يكتب في ميدان التاريخ الإسلامي؛ أي أن الاهتمام أصبح منصباً على القرآن الكريم وعلم الحديث وما يتصل به من سيرة رسول الله ﷺ وغزواته والفتوحات الإسلامية.

ويقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «وجاء الإسلام فحسم ذلك الصراع كله لمصلحة الدين الإسلامي ولغة عرب الشمال «اللغة العربية الحالية» وأدخل اليمن وأهلها عنصراً من عناصر الحضارة العربية الإسلامية الناشئة، معطياً إياهم سبيلاً جديداً في التاريخ على أنه بكل تأكيد لم يمح بلمسة سحرية من ذاكرة الناس ولا من مسطور كتبهم ومن متواتر الروايات كل ما كانوا يعرفون ويتداولون من معارف التاريخ ومن أخبار الماضيين، حيث إنها معلومات تاريخية تتعلق بتاريخ اليمن ودوله من سبأ أو قتبان ومعين وأوسان وحمير، ومن أخبار المكارب والآثار القائمة والمعابد والمحافد والسدود والقصور ومحطات التجارة ومن عقائد الدين.. وبالرغم من وجود هذه الخلفية التاريخية الواسعة في اليمن تساندها الآثار من جهة والنصوص الدينية من جهة أخرى وبالرغم من أن كلمة (التاريخ) قد تكون مأخوذة من اللغة اليمنية القديمة، ومن أن التقويم الهجري قد يكون تأثر في ظهوره بوجود تقويم خاص قديم في اليمن فإن كل ذلك الفكر التاريخي السابق قد توقف بعد ظهور الإسلام ليتبنى خطاً جديداً ووجهاً جديداً ضمن إطار الدين الجديد».

وخلاصة القول: إن إشراق الدين الإسلامي في اليمن خلق عند الشعب حُب الاستقرار. لذا استوطنت القبائل في المدن الكبيرة، وأقبل أفرادها على القراءة والكتابة في مجال علم التاريخ فنبغت أعداد كبيرة. فكان لمدرسة اليمن التاريخية نصيب الأسد من هذه الحركات العلمية التي كان يعتبرها المؤرخون في العالم ثورة ثقافية، حيث بدأ طلاب العلم يأتون إلى مدرسة اليمن التاريخية لدراسة علم التاريخ من كل صوب وحدب؛ لأن أساتذتها كانوا متفوقين ليس فقط بتاريخ العرب في الجاهلية ولكن أيضاً بتاريخهم في الإسلام.

خلال القرن الثاني الهجري حدث تقهقر ملحوظ في مكانة مدرسة اليمن التاريخية، وسبب ذلك النزوح البشري من اليمن إلى كل من العراق وخراسان وجنوب الشام ومصر والأندلس وراء طلب العلم. لذا كتب معظم تاريخ اليمن على يد علماء كبار من اليمن كانوا يعيشون في الخارج.. ولهذه المجموعة الفضل بعودة النشاط السياسي والاقتصادي والتعليمي إلى اليمن خلال القرن الثالث الهجري وهكذا بدأت الحركة العلمية من جديد. والجدير بالذكر أن مؤرخي مدرسة اليمن التاريخية لم يحاولوا ربط تاريخ اليمن بتاريخ الأمصار الإسلامية الأخرى، بل بقي تاريخاً محلياً خليطاً من الطبغرافيا والأنساب والتاريخ الحضاري.

ويقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «الملاحظ أن مدرسة اليمن التاريخية إذا لم تتأثر في غير الشكل بالمدارس التاريخية الإسلامية الأخرى، فإنها لم تتلق أي تأثير من التواريخ الأجنبية كالتأثيرات البيزنطية أو الفارسية، فظلت في تكوينها الفكري أكثر المدارس التاريخية في الإسلام محافظة لا على محليتها فقط ولكن على طابعها العقائدي السياسي أيضاً».

مدرسة فارس التاريخية:

بدأت مدرسة فارس التاريخية إقليمية بحتة، حيثُ بذل أساتذتها جهداً كبيراً بتعريف أبناء فارس بمكانة أجدادهم في التاريخ، كي يقفوا وقفة شجاعة أمام الزحف الروماني الذي خسّر الفرس كلاً من مكانتهم السياسية العالمية وديانتهم الزرادشتية، لذا كتبوا مؤلفات قيمة في لغتهم آنذاك البهلوية، وبقيت هذه المؤلفات بين يدي مثقفيهم. ولكن عندما فتح قادة المسلمين الأشاوس بلاد فارس وأرسوا قواعد الدين الإسلامي هناك بين الصغير والكبير، انحسر

دينهم الخرافي أمام الدين الإسلامي الحنيف، وعليه اتجهوا إلى نقل معلوماتهم التاريخية والعلمية من لغتهم البالية إلى اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة سيد البشرية محمد بن عبد الله ﷺ . ومن هنا أصبحت بلاد فارس قطراً إسلامياً قوياً جداً، حيث دخل الدين الإسلامي إلى أعماق الحياة الفارسية. ولاشك أن علماء فارس قدموا إنتاجاً علمياً غزيراً في كل من اللغة العربية واللغة الفارسية خدموا به الحضارة الإسلامية خدمة جليلة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «بدأت مدرسة فارس التاريخية في الواقع منذ القرن الهجري الأول، أيام الأمويين، وبدأت بترجمة مالديها إلى العربية لا بكتابة التاريخ، لم يكن لديها ما تكتبه، والحكم والملك والدين للعرب، فاكتفت الجموع الفارسية بأن تدلي بدلوها في معترك الثقافات. وانقضى القرن الثاني وشطر كبير من القرن الثالث، وليس ثمة من مؤلف خاص أو تاريخ إقليمي يحكي غير قصة التاريخ الفارسي القديم السابق للإسلام. أما بعد الإسلام: فلم يكن لهم فيه كبير مجد، فلم يكتبوه ولا اهتموا بذلك، غير أن الفتح العربي خلال القرنين الأولين كان قد استطاع أن يفعل ما لم تفعله قرون طويلة من التماس والتمازج الثقافي بين الفرس والروم. الثقافة اليونانية (الهلينية والهلينستية) لم تلامس من الحياة الفارسية إلا السطوح، ظلت غريبة عن العقلية الفارسية وعن ثقافة الناس في إيران، أما الفتح العربي فقد استطاع أن ينفذ تدريجياً إلى أعماق الحياة الفارسية، وإلى جذورها الأولى بما قدم لها من دين ولغة وحكم .. وكان اللقاء (العربي ـ الفارسي) من أندر اللقاءات الخصيبة بين الشعوب».

استمر الفرس يحاولون إثبات هويتهم في عهد الدولة العباسية، ولذا نمت مدرسة فارس التاريخية نمواً كبيراً، حيث اتجهوا إلى التأليف بكل من اللغة العربية واللغة الفارسية الحديثة مستخدمين المصادر الفارسية القديمة المكتوبة

باللغة البهلوية. كما نقلوا تاريخ فارس القديم الذي يحتوي على الدين الزرادشتي إلى اللغة العربية. والمعروف أن الفرس كانت لديهم الرغبة القوية في المعرفة العلمية عبر العصور، وبهذا استطاعوا بكل جدارة أن يستفيدوا من الحركة العلمية العظيمة في بغداد أيام الدولة العباسية، لذا صار تبادل واختلاط ثقافي بين الأمة العربية والإسلامية وبلاد فارس المسلمة لم يحدث له مثيل، من هنا انصب جهود جهابذة الفكر في فارس على التأليف في اللغة العربية لغة القرآن الكريم، لذا توطدت اللغة العربية بين كبار العلماء في فارس، على الرغم من استمرار الحفاظ على اللغة الفارسية الحديثة، وعليه نستطيع القول: إن بلاد فارس بقيت مدة طويلة ثنائية اللغة.

يقول **شاكر مصطفى** في كتابه آنف الذكر: «إن اللغة البهلوية التي كانت في العهد الساساني هي اللغة الرسمية للدولة وللدين الزرادشتي تراجعت وأهملت بعد الفتح الإسلامي تاركة مكانها للغة محكية مشتقة منها يدعوها الباحثون باللغة الفارسية الحديثة مقابل الفارسية القديمة السابقة للبهلوية والتي تُعتبر كالأم بالنسبة إليها وقد قضت هذه اللغة الفارسية المحكية عدة قرون قبل أن تصبح لغة كتابة وأدب وشعر وتأليف في أواخر القرن الرابع الهجري. وخلال هذه القرون تعرضت بنتيجة الاتصال بالإسلام والحكم العربي لتأثير واسع من اللغة العربية أدخل عليها الكثير الكثير من مفرداتها وأساليبها الأدبية.. ظلت الثقافة في فارس أكثر من ثلاثة قرون ثنائية اللغة، وكبار ممثليها كانوا يؤلفون بالفارسية والعربية على السواء».

وخلاصة القول: لم يستمر تأثير اللغة العربية في مدارس فارس التاريخية كما كانت، بل في مطلع القرن الرابع الهجري برزت حركة قومية عارمة في بلاد فارس تطالب وبقوة باستخدام اللغة الفارسية كلغة قومية، لذا ترجمت

معظم المؤلفات القيمة من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية، وأصبحت لغة مدرسة فارس التاريخية اللغة الفارسية، لذا ركز المؤرخون والكتاب هناك على الكتابة باللغة الفارسية كلغة عالمية أيضاً، وليست كما كانت لغة محلية محدودة. والجدير بالذكر أن المؤرخين الفرس تميزوا بالقدرة الجيدة على الربط ما بين التنجيم والتاريخ، حيث استعملوا الأزياج في حساباتهم. ولقد اشتهر الفرس بتغنيهم في تاريخهم القديم الذي كانوا يعتبرونه الحامي النفسي والمفخرة لكل فرد منهم.

obeikandl.com